ترجمة وتقديم: وليد حباس *

موشيه ديان عن احتلال الخليل، القدس وجبال «يهودا»: «الخليل تستحق مكانتها باعتبارها "أخت القدس" و"أرض التوراة المقدسة"»

تقديم

النص المرفق يسكب الماء على الحدود التي طالما بدت واضحة في بدايات المشروع الصهيوني بين الهوية العلمانية لمؤسسي دولة إسرائيل والهوية التوراتية للمشروع الاستعماري، ويجعلها حدوداً غباشاً سيالة. يقف دافيد بن غوريون، مؤسس إسرائيل، العلماني، عند خط وقف إطلاق النار شمال النقب، بعد هزيمة القوات المصرية على الجبهة الجنوبية في تشرين الثاني ١٩٤٨، وينظر إلى الشرق باتجاه جبال الخليل والقدس القديمة، ويتحسر على عدم احتلالها بقوله «مصيبة قد تستمر لأجيال». مع أن بن غوريون عرض «المصيبة» في حينها باعتبارها مصيبة سياسية-إستراتيجية، فإنه كتب بعد احتلال الضفة الغربية، وبالتحديد في بداية العام ١٩٧٠، مباركاً وضع حجر الأساس لمستوطنة كريات أربع قائلاً: «بدايات كبار ملوك إسرائيل كانت في الخليل، المدينة التي وصلها العبري الأول قبل مجيء الملك داوود بنحو ٨٠٠ عام». موشيه ديان، القائد العسكري العلماني الذي شارك في حرب العام ١٩٤٨، واحتل الضفة الغربية بنفسه في العام ١٩٦٧، يسرد هذه القصة في كتابه المعنون «لنحيا مع التوراة»؛ وهو الكتاب الذي نورد هنا ترجمة لبعض صفحاته.[١]

هذا تبادل غير مألوف للأدوار والهويات بين الصهيونية اليسارية العلمانية كما عرضت نفسها خلال حرب حزيران والصهيونية اليمينية الدينية كما نعرفها اليوم. لطالما لخص موشيه ديان إستراتيجية إسرائيل تجاه احتلال الضفة الغربية على أنها تنبع من حسابات إستراتيجية-«دنيوية»، وقد تشكل ورقة المناورة الأهم

* باحث في «مدار»، وطالب دكتوراة في دائرة علم الاجتماع والأنثوبولوجيا في الجامعة العبرية .

للوصول إلى سلام مع الدول العربية: إذ يمكن الانسحاب من الأراضي (أو «أراضٍ») المحتلة بموجب صفقة سلام شاملة مع العرب. لكن، ديان شأنه شأن بن غوريون، يعود إلى التوراة ليشحذ منها تبريرات «ربانية» ترضي غروره الاستعماري وتنظر إلى أراضي الضفة الغربية بنوستاليجا (تعود إلى ملوك إسرائيل الأوائل) مجبولة بميثولوجيا دينية. لا يرى ديان تناقضاً بين كتاباته الأخرى - المحفوفة برؤية علمانية عسكرية، ومبنية على حسابات جيوسياسية تربى عليها داخل حزبي المباي والعمل اليساريين، وصقلها داخل مؤسسة الجيش التي تربى بداخلها وصولاً إلى منصب رئيس هيئة الأركان ثم وزير الدفاع - وصولاته الروحانية المنزوعة من سياقها التاريخي التي تنظر إلى جبال الضفة الغربية من منظور توراتي مقدس.

ربما ما يجعل هذا النص المقتضب أكثر الحاحاً، هو نكوص الخطاب اليساري واندثار رواية «الاحتلال المؤقت» و«الانسحاب من الأرض المحتلة مقابل سلام عربي شامل»، واشتداد عود الخطاب التوراتي بعد تأسيس حركة غوش ايمونيم بشكل سري في منزل دروكمان الحاخام الروحاني الأكبر للصهيونية الدينية الذي توفي في ٢٥ كانون الأول ٢٠٢٢، ثم تحول الخطاب التوراتي خلال العقود الأخيرة إلى مكون أساسي في العمل السياسي-الحزبي الإسرائيلي. لم تصعد الصهيونية الدينية التي يتزعمها اليوم بتسلئيل سموترتش، ويشكل قاعدتها أكثر من نصف مليون مستوطن موزعين في جبال «يهودا والسامرة» على الرغم من اليسار الصهيوني العلماني، ولم تتبلور كتيار بديل يطل برأسه بعدما انطفأت جذوة اليسار الصهيوني المؤسس، بل إن الصهيونية الدينية ولدت في رحم اليسار الصهيوني الذي، منذ بداياته، كان يعيش في ظلال التوراة، تماماً كما «رغب» ديان: «لنحيا مع التوراة».

من كتاب، موشيه ديان، لنحيا مع التوراة

....

على خلاف احتلال البلاد في فترة يهوشاع، فإن حرب الاستقلال [١٩٤٧-١٩٤٩] جرت أثناء تواجد اليهود في البلاد. دارت الحرب إذاً داخل البلاد وانطلقت منها. حتى أن اتجاه الأعمال الحربية الإسرائيلية كان معاكساً. فقبل الحرب تركز اليشوف اليهودي في معظمه في منطقة الساحل، ومن هناك انطلقت قواتنا شمالاً، وجنوباً وشرقاً. إلى الجليل، والنقب وطريق الواد. وعليه، فإن

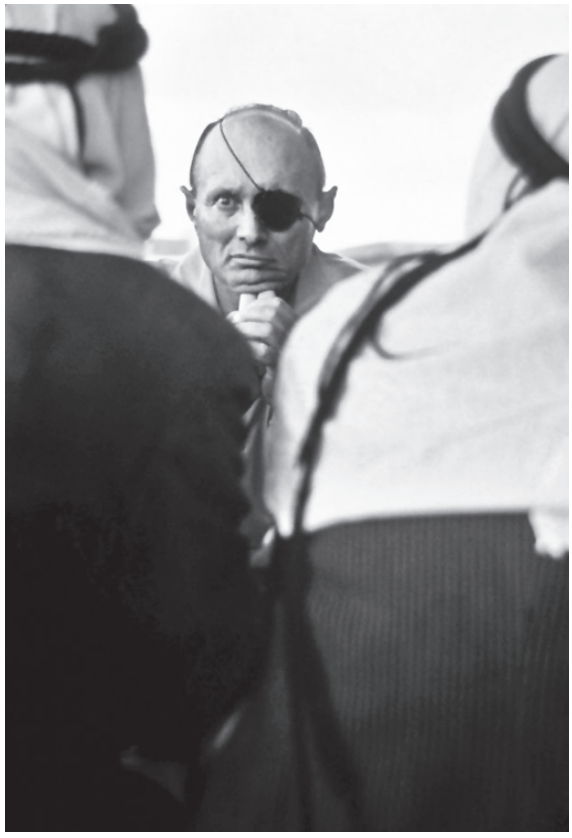

موشيه ديان في مخيم قلنديا بعد الاحتلال عام ١٩٦٧. (عن «ذي نيويوركر»)

حرب الاستقلال اندلعت كحرب وقائية ضد الهجوم العربي، وفقط أثناء الأعمال الحربية انتقلت إسرائيل من الدفاع عن النفس إلى الهجوم.

في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧، قررت عصبة الأمم المتحدة تقسيم أرض إسرائيل إلى دولة عربية ودولة يهودية. رفض العرب القرار وباشروا بهجوم دموي. انطلقت الأحداث الأولى من القدس. فقد هاجمت جماهير عربية تقودها عصابات مسلحة مركزاً تجارياً يهودياً وسطت عليه ومن ثم أحرقته. الحكومة البريطانية أعلنت، في ما بعد، أن ١٥ أيار ١٩٤٨ هو موعد إنهاء الانتداب، بحيث أن الإدارة والجيش البريطانيين سيتركون أرض إسرائيل. في ١٤ أيار ١٩٤٨، وفي تمام الساعة ٤:٣٠ عصراً، قرأ بن غوريون أمام مجلس الشعب [اليهودي] وثيقة الاستقلال وأعلن قيام دولة إسرائيل. بعد ثماني ساعات، وبالتحديد مع منتصف الليل، أعلن العرب عن بدئهم باجتياح عسكري لأرض إسرائيل. وقد أقامت سبع دول عربية هي الأردن، مصر، سورية، العراق، لبنان، السعودية، اليمن قيادة مشتركة

وأرسلوا جنودهم لاحتلال أرض إسرائيل.

لقد انضم الجيش العربي النظامي إلى العصابات الفلسطينية وهاجموا البلدات اليهودية. وقد اضطرت القوات الإسرائيلية إلى تكريس كامل قواتها للدفاع عن بلداتها. لكن مع مرور الوقت، ازداد السلاح بيد الإسرائيليين، وتنامى عتادهم العسكري، وأخذوا على عاتقهم زمام المبادرة الحربية. الهجوم الإسرائيلي الأول كان من خلال عملية «نحشون»، التي تم من خلالها تمهيد الطريق إلى القدس. جرت هذه العملية بتاريخ ٣ نيسان ١٩٤٨، أي قبل شهر ونصف من إجلاء القوات البريطانية والإعلان عن قيام دولة إسرائيل وهجوم الجيش العربي.

استمرت حرب الاستقلال نحو عام ونصف، ابتداء من ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ وحتى ٢٠ حزيران ١٩٤٩، وهو اليوم الذي تم فيه توقيع اتفاق وقف إطلاق النار الأخير مع سورية. سبق هذا الاتفاق، اتفاقيات وقف إطلاق نار أخرى مع مصر ولبنان والأردن.

هُزمت القوات العربية على كل الجبهات، أما دولة إسرائيل فقد قامت وبقيت كدولة آمنة تحت قيادة دافيد بن غوريون والجيش- جيش الدفاع الإسرائيلي.

في القسم الأول من حرب الاستقلال، مرت إسرائيل بتجارب قاسية وحظيت ببعض الفشل. إن نقطة التحول وبداية مرحلة الحسم كانت في ١٥ تشرين الأول ١٩٤٨، أثناء عملية «يوآف»، التي سعت للإطاحة بالجيش المصري ومنع محاولاته فصل النقب عن إسرائيل. جرت عملية «يوآف» في ظل التوصيات التي قدمها الأمير السويدي برانديت، الذي تم تعيينه من الأمم المتحدة للوساطة بين العرب وإسرائيل. كانت التوصيات مناهضة لإسرائيل وأسوؤها كانت التوصية القائلة بضرورة فصل النقب عن دولة إسرائيل. اغتيل الأمير برانديت بتاريخ ١٧ تشرين الثاني في القدس من قبل رجال «الليحي»، وكان هناك تخوف من أن تتحول توصياته إلى «أمر واقع سياسي».

دارت عملية «يوآف» بشكل رائع. في ٢١ تشرين الأول، احتل الجيش الإسرائيلي بئر السبع. في ٢٧ تشرين الأول، دخلت قوات الجيش الإسرائيلي إلى اشدود. وتم ضرب الجيش المصري وتحييد منظومة قواته بشكل كامل.

بعد نشر توصيات برانديت، عشية بدء عملية «يوآف»، أزاح بن غوريون ناظره إلى الشرق، ونظر إلى القدس القديمة وجبال الخليل. بيد أن الحرب أوشكت على وضع أوزارها. وترسيم خارطة إسرائيل أوشك على الانتهاء. أما الجيش الإسرائيلي فقد ازداد قوة وقدرة في تلك الفترة. هل هذا وقت مناسب للهجوم [على القدس وجبال الخليل]؟ إذا لم نفعلها الآن، فمتى إذن؟

في ٢٦ أيلول ١٩٤٨، قدم بن غوريون خطته للحكومة: على الجيش الإسرائيلي أن يحتل القدس القديمة وجبال الخليل، وأن يترك جيباً عربياً [دون أن يحتله] يمتد من نابلس وحتى اريحا. بحيث أن إسرائيل تضم داخل حدودها الخليل والقدس، وكل أراضي يهودا، وساحل البحر الميت والمعابر مع الأردن المقابلة لمدينة اريحا.

رُفض مقترح بن غوريون. وافق خمسة من أعضاء الحكومة عليه مقابل رفض سبعة أعضاء آخرين. تخيل الرافضون سيناريو سوداوياً. فالأمم المتحدة، «التي [كانت ولادة] إسرائيل متعلقة بها»، سترد بقوة على عملية عسكرية من هذا النوع، وبالتحديد بعد اغتيال برانديت. كما أن الولايات المتحدة ستمنع اليهود الأميركيين من الاستمرار في تقديم المساعدات المالية لإسرائيل، أما العرب فسيستأنفون حربهم على كل الجبهات.

أما بن غوريون فقد رد على رفض الحكومة الإسرائيلية لمقترحه بقوله: «هذه مصيبة قد تستمر لأجيال». إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه، أضاف بن غوريون، فإن الأردن ستفرض سيطرتها على جبال يهودا، القدس القديمة، وعلى الطرق المؤدية إليها من الشمال والشرق والجنوب. رفض الحكومة [لمقترح بن غوريون] يعتبر أمراً مخجل بالنسبة للوزراء الذين رفضوا احتلال جبال الخليل والقدس. هذا القرار سيكون بمثابة كارثة سياسية وإستراتيجية.

لقد كانت بالفعل مصيبة، لكنها لم تستمر لأجيال. بعد أقل من عشرين سنة على حرب الاستقلال، احتلت إسرائيل جبال الخليل. في ٢٢ أيار ١٩٦٧، أعلن الرئيس المصري عبد الناصر عن إغلاق مضيق إيلات أمام الملاحة الإسرائيلية. بعد سبعة أيام من ذلك، في ٣١ أيار، وصل الحسين، ملك الأردن، إلى القاهرة وطلب الانضمام إلى جبهة القتال العربية ضد إسرائيل. وافق عبد الناصر على طلب الحسين، ووقع معه اتفاق دفاع مشترك وعين جنرالاً مصري باسم عبد المنعم رياض، لقيادة الجبهة الشرقية على أن يقف أيضاً على رأس الجيش الأردني. في ٥ حزيران، وعندما بدأت حرب الأيام الستة، انضمت الأردن إلى الهجوم المصري والسوري. فقد هاجمت قواتها إسرائيل، وقصفت القدس بواسطة راجمات، وفتحت نيران مدافعها وسلاحها الخفيف على طول خط وقف إطلاق النار. استمرت حرب الأردن ضد إسرائيل يومين اثنين فقط. في صباح

موشيه ديان عن احتلال الخليل، القدس وجبال «يهودا»: «الخليل تستحق مكانتها باعتبارها "أخت القدس" و«أرض التوراة المقدسة».

اليوم الثالث، احتل جيش الدفاع الإسرائيلي القدس، وفي ساعات ما بعد الظهر استسلمت الخليل ونابلس وأريحا.

انتهت الحرب مع الأردن. من يدري ما كان سوف يكون مصير الضفة الغربية والقدس لولا انضمام ملك الأردن للحرب. لم تطلب مصر أو سورية من الأردن الانضمام للحرب. بل كانت مبادرة من قبل الملك نفسه. فقد صعد من تلقاء نفسه على متن طائرته الملكية من طراز «كاربيل» واتجه إلى مصر، تماماً كما فعل آباؤه وأجداده عندما امتطوا خيولهم في السابق ومضوا إلى مصيرهم.

رسل القدر لا يضرون. فقد هبطت الطائرة في القاهرة بسلام. وقد ذهب الحسين إلى الحرب وانهزم، أما القدس ويهودا والسامرة فقد أصبحت تحت الحكم الإسرائيلي.

بعد انتهاء الحرب، أقيمت مدينة يهودية بجانب الخليل، اسمها كريات أربع. في ١٩٧٠، أصدر «مجلس أهالي الخليل [اليهود]» كتاب الخليل. يبدأ الكتاب بمقتطفات من كلمات بن غوريون. اسم المقال هو «أخت القدس»، وينتهي بالكلمات الآتية:

لكن لا يجب أن ننسى: بدايات كبار ملوك إسرائيل كانت في الخليل، المدينة التي وصلها العبري الأول قبل مجيء الملك داوود بنحو ٨٠٠ عام- وسنقوم بخطيئة لا تغتفر إذا لم نستوطن الخليل، جارة القدس التي سبقتها في القدم، من خلال إقامة مستوطنة يهودية، بشكل سريع، بحيث تستمر هذه المستوطنة بالازدهار الأبدي. هذا من شأنه أيضاً أن يجلب البركة إلى السكان العرب. تستحق الخليل أن تكون أخت القدس.

ساديه بوكر، ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٠- بن غوريون.

المراجع

١ النص ورد في كتاب Moshe Dayan, *Living with the Bible* (New York: W. Morrow, 1978).